

"مصطلح"التداولية" في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي والتأسيس" -قراءة تحليلية نقدية-

The Term of "Pragmatics" in Modern Arabic Studies between the Reception and Establishment - An Analytic Critic Reading-

Pr. Abdelhalim BENAÏSSA
Oran1 Ahmed Benbella University -Algeria-

أ.د. بن عيسى عبد الحليم
جامعة أحمد بن بلّة - وهران 1 - الجزائر -
abdelhalim2001@yahoo.fr

ملخص

إنّ المتأمل للوضع الراهن للدرس التداولي العربي يلحظ أنّه استطاع أن يتحدّد ضمن إطار علمي خاص و متميِّز، تُترجمه تلك الأعمال التي عرّف فيها أصحابها بهذا المجال، فبيّنوا طبيعته ومقولاته، مع محاولة الإفادة منه في تحليل أصناف الخطاب اللغوي. غير أنّنا سنتناول في هذه الورقة البحثية تلقي مصطلح "التداولية Pragmatique" في الدراسات العربية المعاصرة؛ فإذا ما قرأناها في ضوء منهجية وضع المصطلح العلمي التي أكّدت عليها المجامع العربية، فإننا قد نُبدي الكثير من الملاحظات التي نُبرز من خلالها أنّ هناك مصطلحات عديدة أُقترحت ضمن هذا الحقل العلمي المتخصص، لم يتم فيها احترام ما تملّيه منهجية التوليد المصطلحي، قد نُعرِّز ذلك انطلاقاً من إشكالية مصطلح "التداولية" في حدّ ذاته؛ حيث تم اقتراح العديد من المقابلات التي لا تتوافق مع طبيعة هذا العلم.

ولمناقشة قضايا هذه الإشكالية سنعرّف بداية بالمصطلح العلمي ومنهجية وضعه، ثم نقدّم قراءة وصفية تحليلية نقدية لمجموعة من المصطلحات للتداولية التي وردت عن الدارسين العرب المعاصرين، ولم يتقيّد فيها أصحابها بخصوصيات المصطلح العلمي العربي الأصيل من حيث الوضع والمفهوم.

وقد صاحبت هذه الدراسة ترجمات عديدة لبعض الكتب المهمة في التداولية؛ قد نخص بالذكر كتاب "أوستين Austin"، وكتاب تلميذه "سيرل Searle".

الكلمات الدالة: التداولية، المصطلح العلمي، المصطلح التداولي، التوليد المصطلحي، المقصدية، النفعية.

Abstract

By looking at the present situation of the Arabic pragmatic studies, we can see that it was able to be delimited within a special scientific frame, this can be seen in the writings which defined this domain, its nature and fields, and thus trying to profit from its analysis of the linguistic discourse genres.

We are going to deal -in the light of this communication- with the reception of "the term pragmatic" in modern Arabic studies; if we deal with it in the light of the methodology of putting scientific concepts which were emphasized by Arabic standard institutions, we can make a lot of remarks in which we show that there are a lot of concepts in this specific scientific field which have proposed to the translations that did not respect the norms of derivational terminological methodology, and the problematic of the term "pragmatics" itself has justified this where there were a lot of proposed translations that did not match to the nature of this science.

Todiscuss these issues of this problematic, first we are going to define the scientific term and the methodology of putting it, then we are going to present an analyticcritic description of a set of pragmatic terms tackled by modern Arabic scholars where they did not respect the norms of putting standard characteristics of Arabic scientific terms by taking into consideration Concept and State.

This study is supported by a lot of translations of some important books in Pragmatics, like the books of Austin and his student Searle.

Key words: Pragmatics, Scientific terminology, Pragmatic terminology, Terminological derivation, Intentionality, Pragmatism.

المراد الذي يربط بين الدال والمدلول لمناسبة بينهما. ولذلك كان "الاتفاق" بين الجماعة على الأسس والمبادئ المحددة في وضع المصطلحات العلمية الأمر الهام الذي يقتضيه هذا العلم.

2- سمات المصطلح العلمي

يعد المصطلح لفظاً خاصاً ضمن اللغة المتخصصة؛ إذ يعبر عن نمط معرّفٍ معيّن انطلاقة من مفاهيم محدّدة، وإنما سُمّي المصطلح مصطلحاً لتمييزه بمجموعة من السمات التي تخصّه؛ منها:

أ - ارتباطه بمفهوم واحد وواضح يكوّن وجهه المدلولي بحيث يجعله دالاً عليه مهما تعدّدت استعمالاته في الحقل العلمي المحدّد. ومنه يتجلّى الفرق بين المصطلح والكلمات غير الاصطلاحية؛ إذ قد تتعدّد دلالات هذه الأخيرة وفق ما تقتضيه الاستعمالات السياقية لها. ومن الضروري أن نشير إلى أنّ وضوح المصطلح المفرد يرتبط في المقام الأول بوضوح المفهوم الذي يدل عليه، ويتحدّد في إطار نظام المفاهيم التي تنتظم داخل التخصص الواحد. لترتبط خصوصية المصطلح بالوحدوية المفهومية التي يدل عليها من جهة، وبموقعه المحدّد في إطار المصطلحات الأخرى داخل التخصص المعيّن من جهة أخرى.

ب - الدلالة المباشرة مما تجعل مصطلحات لغة التخصص تختلف عن كلمات اللغة العامة، فهذه الأخيرة قد تعتمد الإيحاء والتعدّد الدلالي، في حين يقتضي المصطلح في جوهره الدقّة في الدلالة، والبعد عن الغرابة والغموض. ومنه يتّضح الفرق بين اللغة العلمية واللغة الفنية، باعتبار أنّ الأولى تقوم على استخدام الأسلوب العلمي في التعبير العلمي المتخصص. أما الثانية فترتكز على الطريقة الفنية التي يغلب عليها الطابع الأدبي والجمالي.

ج - بناؤه ووضعه على الاتفاق بين المشتغلين باللغة المعينة، وكلمة "الاتفاق" تتنافى مع جميع أشكال الاعتباطية والفردية في التوليد المصطلحي.

د - وجود علاقة مقصودة بين المصطلح ودلالية مادته اللغوية؛ فالمصطلحات لا توضع ارتجالاً أو اعتباطاً؛ بل لابد من وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومفهومه الاصطلاح، وهذه المناسبة تعتبر من بين

مقدمة

1- المصطلح العلمي؛ ماهيته وسماته

"المصطلح" جزء من المنهج العلمي، باعتبار أنّ المعرفة العلمية لا تقوم إلا على منهج قائم على مفاهيم محدّدة، تجسّدتها مصطلحات خاصة. وهو في اللغة العربية مصدر ميمي للفاعل "اصطاح"، ومن المادة المعجمية "صَلَحَ" بفتح اللام وضمّها. وقد حدّدت المعجمات العربية دلالة هذه المادة بأنّها "ضدّ الفساد"؛ قال الجوهري: «الصلاح ضدّ الفساد، تقول صلح الشيء يصلح صلوحاً. قال الفراء: وحكى أصحابنا صلح أيضاً بالضم... والصلاح المصالح... والإصلاح نقيض الإفساد»⁽¹⁾. وأشارت النصوص اللغوية أيضاً إلى أنّ "الاصطلاح" هو الاتفاق الذي قد يتم بين الجماعة المعينة على أمر معيّن؛ حيث ورد في تاج العروس: «والاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص»⁽²⁾. وهو معنى قريب من المفهوم العام الذي يدل عليه "المصطلح" في استعماله العلمي.

ولم يرد الاستعمالان "مصطلح واصطلاح" في القرآن الكريم، أو في الحديث النبوي الشريف، وحتى في المعاجم العربية القديمة، ولكن مع تكوّن العلوم في الحضارة العربية الإسلامية وتطورها تخصّصاً للدلالة على الكلمات التي تحمل مفهوماً علمياً معيناً في الحقل العلمي المخصوص. وبهذا المعنى استخدمت كلمة "مصطلح"، وأصبح الفعل "اصطاح" يحمل هذه الدلالة الجديدة، فقد كتب الجاحظ (ت255هـ) عن المتكلمين أنهم «اصطاحوا على تسمية ما لم يكن في لغة العرب اسماً»⁽³⁾.

وجاء في المعجم الوسيط: «المصطلح هو المفرد المصطلح عليه؛ أي المتفق على استعماله، ولكل علم اصطلاحاته»⁽⁴⁾.

وقد عرف الجرجاني؛ علي بن محمد، المصطلح بقوله: «هو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله عن موضعه الأول لمناسبة بينهما في الوصف أو غيرها»⁽⁵⁾. ف"المصطلح" تخصيصٌ لدلالة معينة بلفظ محدّد، شريطة أن تكون هناك علاقة بين المعنى اللغوي الأصلي والمفهوم الاصطلاح، لذلك يقال في تعريف الموضوعات لغة: "هو كذا..."، واصطلاحاً: "هو كذا...".

ف"المصطلح" لفظٌ يُطلق للدلالة على مفهوم معيّن عن طريق الاصطلاح (الاتفاق) بين الجماعة اللغوية على ذلك المفهوم

النفسيّة وتحليل الخطاب⁽⁷⁾.

ولهذا لمسنا صعوبة كبيرة لدى المتخصصين الغربيين قبل العرب في ضبط مفهومها، وقد اتّسم لدى البعض بالعمومية؛ قد نركّز في هذه المناسبة:

-تساءل مؤلّفًا "القاموس الموسوعي للتداولية" "جاك موشلار Jacques Moeschler" و"آن روبول Anne Reboul" عن طبيعّة التداولية فقالا: «حين نخبر زملاءنا بأننا "تداوليون"؛ فعادةً ما نشير لديهم صمتاً دالاً؛ فبأيّ يمكن للتداولي إذن أن يُعنى؟ أهو لساني أم فيلسوف أم عالم نفس؟ وأسباب هذه الأسئلة هي:

أ- بدءاً أولت النظريات اللسانية المهيمنة (وهذا شأن التوليدية كما هو شأن البنيوية) عنايةً ضعيفةً لاستعمال النظام اللغوي، فقد ركّزت اللسانيات عنايتها على دراسة النظام؛ الصوتية والصرف والتركيب والدلالة).

ب- السبب الثاني لهذه الحيرة هو عجز اللسانيين عن تحديد ميدان التداولية في مقابل فروع اللسانيات الأخرى⁽⁸⁾.

وقد أبرزنا أنّ اللسانيات قد اتّضح مجالها؛ إذ تتخصص بدراسة النظام اللغوي بكل مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، غير أنّه يبقى في حدود البنية اللغوية، مما دعا إلى ضرورة اعتماد الظواهر التي لا يمكن تجاوزها أثناء الاستعمال اللغوي؛ لأنها من مكّونات القول التي تضي عليه فعالية أكثر. ومن هذه الظواهر إلقاء القول (التلفّظ)؛ وهو أهم اكتشاف بالنسبة إلى التداولية، على أساس أنّ بعض العبارات ليست لها وظيفة تعيين شيء في الكون؛ بل وظيفتها الإحالية ذاتية (تحيل على نفسها)، مثل الأقوال الإنشائية كقولنا:

-أعدك بالمجيء.

-أمرك بأن تنصت إلى الدرس.

-أتمنى لك إقامة طيبة.

-للأسف لا أستطيع أن أساعدك.

فمثل هذه العبارات الإنشائية تقوم على إنجازية معينة؛ كالوعود أو التهنئة أو الاعتذار، أو غيرها، حيث ترتهن بإلقاء القول باعتباره جزءاً لا يتجزأ عن دلالته.

ومن الظواهر التداولية كذلك أنّ لبعض الأقوال خاصية استلزام أقوال أخرى، كقولنا:

"لديّ ارتباطات؛ لمن سألتني "هل يمكن أن تحضر غداً؟" حيث يستلزم القول الأول أنّني سأغيب، وهي عبارة يقتضيهما السياق الذي يجري فيه التخاطب. ومنه تعمل التداولية على تفسير الطريقة التي قد تجعل المتكلم يقول قولاً، ويقصد به قصداً يتعدى المعنى الحرفي للقول وفق علاقة ما. كما تفسّر الكيفية التي تمكّن المتلقي من الوصول إلى التأويل المناسب للقول، بالوقوف على المبادئ السياقية التي قد تحتضن التخاطب وتحقق غاياته. وقد وضّحها التداوليون ضمن مباحث متنوّعة؛

الأساسيات التي تسهم في الحفاظ على الهوية اللغوية للمصطلح العلمي.

هـ - مراعاته للمقتضيات اللغوية للغة المخصوصة؛ أي البناء الصوتي والبناء الصرفي، وخضوعه للاشتقاق، وغيرها من الأسس اللغوية التي تؤمّن للغة المعينة خصوصياتها المميزة لها.

و- ينبغي أن يكون لفظاً أو تركيباً (تركيب إضافي، أو تركيب مزجي)، وأن لا يكون عبارة طويلة تصف الشيء وتوحي به.

يتّضح لنا في رحاب هذه السمات أنّ المصطلح العلمي تؤطّره خصوصيات، تميزه عن الكلمة العادية من حيث اختصاصه بالمفهوم الواحد، وعدم قابليته للترادف أو الاشتراك.

3- مصطلح "التداولية" في الدرس الغربي

تمثّل "التداولية La pragmatique" حقلاً علمياً متميّزاً، ظهرت كنتيجة عن القطيعة التي أحدثتها الدراسات البنيوية عن معطيات السياق ككل، حيث ركّزت على الاستعمال اللغوي كإنتاج لغوي لا ينفصل عن الموقف الذي يتحقّق فيه.

يعود المصطلحان الإنجليزي "Pragmatics" والفرنسي "Pragmatique"، إلى الأصل اللاتيني "Pragmaticus" الذي أُستخدم في عام 1440م تقريباً، وهو من الأصل اليوناني "Pragma" الذي يعني العمل أو الفعل "Action"، وكلمة "Pragmaticos" الإغريقية بمعنى عملي⁽⁶⁾.

وفي الحقيقة إنّ آية محاولة للكتابة العلمية، في أي حقل من الحقول العلمية المتنوعة، تصطدم بإشكالية اعتماد المصطلحات الذي تنتظم من خلالها مجمل المفاهيم داخل التخصص المعين. وهذا ما قد نلاحظه في "التداولية" كحقل علمي خاص، استطاع أن يتميّر عن غيره بمنظومة اصطلاحية خاصة.

وقد عمل الدارسون العرب على إيجاد المقابلات التي من شأنها أن تحتضن المفاهيم المتولدة عن هذا المجال، ولعل أهم إشكالية قد نطرحها في هذه المناسبة هي قضية إيجاد المقابل العربي الأصيل للمصطلح الأجنبي، بالإضافة إلى العلاقة التي تقتضيها منهجية الوضع الاصطلاحي بين الدلالات اللغوية للمصطلح والمفهوم المُبتغى، بما يحقّق التوحيد الاصطلاحي لدى الباحثين.

ويصعب في الحقيقة اعتماد مفهوم دقيق وشامل للتداولية، وكما يعسر أيضاً ضبط موضوعاتها، والسّر في ذلك يعود إلى طبيعة هذا المجال المرنة والمتشعبة والمتداخلة المعطيات؛ إذ ليس لها أنماط تجريدية، ووحدات التحليل، وليست مستوى من مستويات الدرس اللساني المعتمدة (الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي)، كما أنّها لا تقتصر على دراسة جانب محدّد من جوانب اللغة؛ بل من الممكن أن تستوعبها جميعاً، وكذلك قد لا تنضوي التداولية ضمن علم من العلوم التي تتداخل معها في مجالها، كعلم الدلالة واللسانيات الاجتماعية واللسانيات

أدى بـ"فيليب بلانشيه Philippe Blanchet" لأن يعتبرها «كياناً غامضاً، أو قل جراباً جديداً توضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسية؛ هي اللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي، والدلائلية إلخ... نحو المشاكل التي أثارها هذه الاختصاصات، ولم تتوصل إلى معالجتها بشكل مرض»⁽¹³⁾. وهذا ما يعكس طبيعة الدراسة التداولية التي اتسمت بالضبابية لدى الدارسين في نشأتها، ونظراً لهذه الطبيعة أيضاً فقد وُصفت عند بعض الفلاسفة واللسانيين بـ"صندوق المهملات"⁽¹⁴⁾. ونعتتها الباحثة الفرنسية "أوركينيوني G.Orcchioni" بالنزّل الإسباني؛ فهي مُستعدة لاستقبال كل صنوف الإشكاليات مهما بدت متغايرة، وغير منسجمة⁽¹⁵⁾.

وارتهان الاستعمال اللغوي بالسياق أيضاً جعل وظيفة الدرس التداولي تقتضي البحث في القصد؛ باعتبار أن «كل منطوق من المنظور البراجماتي ليس منطوقاً من مضامين فحسب؛ بل هو منطوق من المقاصد أيضاً»⁽¹⁶⁾. وهنا نشير إلى أن "القصد" لا يرتبط بدلالات الكلمات وسياقاتها⁽¹⁷⁾؛ بل يتعدى ذلك ليتعلق أكثر بالتداول الذي يحتضنها، انطلاقاً من الموقف الذي تستخدم فيه، ثم بقية الملابس التي تتعالق معها.

وقد نقول إن "التداولية" حقل متخصص، يهتم بعلاقة اللغة بمستعملها؛ فيدرس كيفية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية في خطاباتهم المتنوعة، مما يحقق الآثار المتبغاة. كما يُعنى ببيان كيفية تأويل مستعملي اللغة لتلك الخطابات، وتحدد أيضاً دور السياق وأهميته في الإنتاج الكلامي، وتعالج بقية الأنساق غير اللغوية التي تسهم في إنتاجية الفعل الكلامي وتأويله. وهي تسعى كذلك إلى إرساء مبادئ للتخاطب بين منتج الكلام ومتلقيه، وفي علاقته الوثيقة مع الموقف الذي ينتج فيه الكلام.

وقد تساءل الدارسون عن طبيعتها، وإمكانية نسبتها إلى الدراسات اللغوية، والسبب في ذلك هو منشؤها الذي لم يتم في أحضان اللسانيات التي بلغت شأنها كبيراً خلال القرن العشرين؛ ونعتقد أن هناك سببين مباشرين لذلك:

- طبيعة الدراسة اللسانية التي تأسست على البقاء في حدود البنية اللغوية، واستبعاد كل المعطيات غير اللغوية، وهذا ما تمليه الفلسفة البنوية التي أطرت الدرس اللساني الحديث.

- ثم إن الفكر التداولي قد وُلد في أحضان الفلسفة التحليلية التي ربطت اللغة بالفعل، فتعدت بذلك حدود النسق اللغوي. وقد ارتقت أكثر مع ثلاثة فلاسفة بوجه خاص، على أنهم القوة الموحية للتداولية اللغوية؛ وهم: "أوستين Austin" و"سيرل Searle" و"غرايس Grice"، وكلهم ينتمون إلى مدرسة "فلسفة اللغة العادية"، وقد اهتموا بالطريقة التي تعبر فيها اللغة الإنسانية الطبيعية عن المعاني، كطريقة لفهم طبيعة الفكر والمنطق والتخاطب. ومن الغرابة أن مصطلح "التداولية" لم يظهر في أي عمل من أعمالهم⁽¹⁸⁾.

منها "مبدأ التعاون" لـ"غرايس Grice"، و"مبدأ المناسبة" مع "سبرير Sperper" و"ولسون Wilsson"، و"مبدأ المواضع" مع "أنكسمبر Anscombe" و"ديكرو Ducrot".

لقد أضفت التداولية بهذا الطرح نزعة إستيمولوجية جديدة في الدراسة اللغوية، ترتب عنها تحوّل الدراسة من حقل يدرس البنية اللغوية في إطار نسقيتها المغلقة، إلى مجال آخر تُدرس من خلاله الأقوال وعلاقتها بالموقف الذي يجري فيه التخاطب، بكل مبادئه اللغوية، وغير اللغوية التي تحقق الفعالية والغايات المقصودة. ولذلك عرّف "جاك موشلار Jacques Moeschler" و"آن ريبول Anne Reboul" في مناسبة أخرى "التداولية" بأنها «دراسة الاستعمال اللغوي المقابلة لدراسة النظام اللساني الذي يعدّ من اهتمامات اللسانيات بصفة خاصة»⁽⁹⁾. ومنه نلاحظ أن صاحبي "القاموس الموسوعي للتداولية" يحدّدان ويفرّقان في الوقت نفسه، بين النظرية اللسانية التي تبحث في النظام اللساني بوجه عام، والنظرية التداولية التي تتخصص بالاستعمال اللغوي لهذا النظام حيث تتعالق معه معطيات غير لغوية، تسهم في الكشف عن البعد الإبلاغي والتأثيري المقصود.

- ذكر "جيفري ليتش Geoffrey Leech" و"جيني توماس Jenny Thomas" أنه «يمكننا أن نصف البراغمية، بشكل تقريبي، على أنها دراسة المعنى في الألفاظ اللغوية عند مستخدمها ومفسرِها»⁽¹⁰⁾، وهو مفهوم لا يحدّد طبيعة الدراسة التداولية، ولا يبرز مجالها بدقة كما هو الحال في اللسانيات أو علومها، ثم إن ربطها بـ"الاستعمال" بمعطياته المتنوعة جعلها تتعدى حدود اللغة، لترتهن بمقولات أخرى ذات طرح منطقي واجتماعي ونفسي وثقافي.

وربط التداولية بمستعملي اللغة يعود إلى "تشارلز موريس Morris" (1938) الذي يقول: «إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات»⁽¹¹⁾. وهو تعريف هام يحدّد طبيعة الدراسة التداولية التي تركّز على استعمالية العلامات اللسانية، انطلاقاً مما قد يضيفه مستعملها من حمولات دلالية خاصة، قد تُستفاد من الموقف الذي توظّف فيه.

وارتباط التداولية بـ"الاستعمال" جعلها تنفتح على المعطيات غير اللغوية التي قد تسهم في الإنتاج الكلامي وتحقيق فعاليتها، وهي متعدّدة الجوانب؛ فقد تكون اجتماعية، أو ثقافية أو نفسية أو أيديولوجية، أو غير ذلك. وهذا ما يجعل التداولية -كما لاحظ "إليوار Ilward"- تهتم بثلاثة مكونات لها دور فعال في توجيه التبادل الكلامي؛ وهي:

- المتكلمون؛ المخاطب والمتلقي.

- السياق (الحال/المقام).

- الاستعمالات العادية للكلام؛ أي الاستعمال اليومي والعادي للغة في الواقع⁽¹²⁾.

ومنه تبدو التداولية أكثر مرونة وتأسعاً، وهو السبب الذي

والقرينة الوصفية "Linguistic" للتفرقة بينه وبين المصطلح الفلسفي (Pragmatism)، وهي دلالة دخيلة على الثقافة العربية. وأرى أن أقرب الترجمات العربية إليه بمفهومه الغربي الذي يقوم على الغرض من الخطاب والمصلحة "النفعية" أو "علم الغاية"، وهو أقرب إلى تحصيل الغرض الحسي الذي يرتبط بمفهومه الفلسفي⁽²⁰⁾. حيث ارتضى لنفسه أن يكتفي مع مصطلح "Pragmatique" اعتماد الدخيل "البرجماتية"، في حين اقترح لمصطلح "Pragmatisme" مصطلحا عربيا أصيلا، وهو "النفعية" على الرغم - بحسبه دائما - من المنشأ الغربي للحقلين معا.

ثم أكد أن اصطلاح "التداولية" غير دقيق؛ مبررا ذلك بأن هذه النظرية تحمل مفهوما غربيا، فرأى أن استخدام اللفظ الأصلي الذي يحتفظ بدلالته الخاصة في الوعي الغربي، والعمل باللفظ الدخيل عرف قديم للتعبير عن المفاهيم الدخيلة⁽²¹⁾.

وفي الحقيقة ما هي إلا نزعة شخصية ضيقة؛ لأن اصطلاح "التداوليات" يوفي لهذا المجال حقه، وقد لاقى القبول والارتياح من لدن الكثير المتخصصين منذ ما يربو عن نصف قرن. وهو من وضع المفكر المغربي طه عبد الرحمن الذي يقول: «وقد وقع اختيارنا منذ سنة 1970 على مصطلح "التداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا"؛ لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيي "الاستعمال" و"التفاعل" معا. ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم»⁽²²⁾. بالاجتهاد في وضع المقابل العربي الذي يتعلق في دلالته اللغوية مع المفهوم الاصطلاحي؛ لأن "تداول" في اللغة تعني تبادل الأدوار في الأمر المحدد، والانتقال من أمر إلى آخر؛ فصي اللسان: تَدَاوَلْنَا الْأَمْرَ: أَخَذْنَاهُ بِالْأَيْدِي، ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتَدَاوَلْتُهُ الْأَيْدِي: أَخَذْتَهُ هَذِهِ مَرَّةً وَهَذِهِ مَرَّةً. ويقال تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاوَرناهُ فَعَمَلْ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً⁽²³⁾.

وفي تاج العروس "تَدَاوَلُوهُ: أَخَذُوهُ بِالْأَيْدِي، وَتَدَاوَلْتُهُ الْأَيْدِي: أَخَذْتَهُ هَذِهِ مَرَّةً وَهَذِهِ مَرَّةً"⁽²⁴⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْأَبَاطُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁵⁾، ويذكر الطاهر بن عاشور أن التداول في الأصل تفاعل من دال، ويكون ذلك في الأشياء والكلام، يقال: كلام مُدَاوَلٌ، ثم استعملوا داوالت الشيء مجازا، إذا جعلت غيرك يتداولونه، وقرينة هذا الاستعمال أن تقول: بينهم⁽²⁶⁾. فالتداول يدل في العربية على التفاعل والممارسة، والانتقال من أمر أو حال إلى آخر.

وقد أخذ طه عبد الرحمن في اقتراحه لهذا المصطلح بالصلة التي تربط بين الدلالة اللغوية والمفهوم الاصطلاحي، يقول: «من المعروف أن الفعل "تداول" في قولنا "تداول الناس كذا بينهم" يفيد معنى "تناقله الناس وأدواره فيما بينهم"؛ ومن المعروف أيضا أن مفهوم "النقل" ومفهوم "الدوران" مستعملان

قد نقول إن التداولية تدرس الاستعمال اللغوي؛ فتكشف عن المبادئ (القواعد) والاستراتيجيات التي قد يعتمد عليها المتكلم في إنتاجية هذا لاستعمال. كما تُفسَّر العمليات الاستدلالية التي قد ينجح إليها المتلقي للوقوف على المقصد المطلوب. ويمكن أن نستجمع الجوانب الأساسية التي تفضلت عن هذه الدراسة في المجالات التالية:

-الفعل الكلامي وشروطه وعلاقاته بمجال الاستعمال، وقوته الإنجازية.

-القصد التداولي للاستعمال اللغوي، والذي يتعدى حدود المعنى اللغوي، ليرتهن بمجمل المعطيات اللغوية وغير اللغوية التي تسهم في إنتاجيته وتأويله.

-المبادئ القولية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي والأخلاقي التي تحتضن الاستعمال اللغوي ككل.

-الاستراتيجيات التي قد تحكم التخاطب ككل، بحيث تنتزل في الاستعمال الكلامي، فتضفي عليه سمات خاصة.

4. المصطلح التداولي في الدراسات العربية

إن المتأمل للتداولية كمصطلح وحقل علمي خاص في الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة، يلاحظ ذلك الغموض والضبابية في اصطلاحاتها وتعريفها؛ قد نكتفي في هذه المناسبة بالإشارات التالية:

-يلتبس على الباحث محمود عكاشة منذ العنوان الأمر في المصطلح الذي يرتضيه ضمن هذا المجال، فيُعَنون كتابه "النظرية البرجماتية اللسانية (التداولية)" دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ؛ ثم يقول في المقدمة: «فالبرجماتية اللسانية (Linguistic Pragmatics)، أو التداولية اللسانية، هي نفسها "التداولية Pragmatics" التي شاعت في البحوث العربية، وقد اخترت مصطلح "البرجماتية اللسانية" لدلالته على المفهوم الغربي الدقيق، وللتفريق بين المصطلح اللساني الحديث، والمصطلح الفلسفي "Pragmatism"، وقد تُرجم الأخير إلى البرجماتية والفوائدية والنفعية والعملية. والبرجماتية اللسانية منهج غربي حديث في البحث اللغوي، تأثر بالفلسفة الواقعية المادية في بحث أعيان الأشياء وما يتعلق بها، وهدفها القصد اللغوي»⁽¹⁹⁾. حيث يختار مصطلح "البرجماتية اللسانية Linguistic Pragmatics"، في مقابل "البرجماتية Pragmatism"، لكي يفرق بين المجالين؛ الأول اتجاه لغوي يعنى بالاستعمال الكلامي ومقاصده، والثاني كمذهب فلسفي خاص أساسه قائم على ما هو نفعي وعملي.

ثم واصل وتردد بين "البرجماتية اللسانية" و"التداولية اللسانية"، ليؤكد أن اعتماد المصطلح الدخيل لهذا الحقل أدق من اعتماد مصطلح عربي أصيل؛ يقول: «وأرى أن استخدامه بلفظه الدخيل (البرجماتية) أدق تعبيراً عن مفهومه؛ لأنه يحمل دلالاته في ثقافته الأصلية، ولا مقابل عربيا له يحمل دلالاته الفلسفية الغربية التي تعنى تحصيل كل وجوه المنافع.

التفسير، وعلم الحديث، والمنطق، والفلسفة، وغير ذلك مما له صلة بالموضوع»⁽³⁰⁾. وهو مفهوم يتسم بالعمومية؛ إذ لا يقف على طبيعة الدراسة التداولية في مقابل العلوم الأخرى، ولا يضبط مجالها، ولا يكشف عن علاقاتها ببقية الحقول.

اختار محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي مصطلح "علم المقاصد" مقابل لهذا الحقل؛ ويبرران ذلك بقولهما: «والذي دعانا إلى اختيار هذا المصطلح دون غيره هو أن مفهوم "Pragmatics" يبنى أساساً على "القصد"؛ والمقصدية "Intentionality" في بعدها الاجتماعي. كما أننا إذا أقررنا بمشروعية ترجمة "Sémantics" بمصطلح "علم الدلالة"، فيجوز قياساً أن نطلق على "Pragmatics" اصطلاح "علم المقاصد"⁽³¹⁾. واعتماد معيار القياس في الوضع المصطلحي مقبول، لكن لهذا الاقتراح مفهوماً خاصاً في الثقافة العربية الإسلامية، يجعله غير دقيق إذا ما قابلناه مع "Pragmatics".

وقد انتقد هذا الاقتراح محمود عكاشة، وعلل ذلك بأن «المقاصد» في صيغة الجمع خيصي الخطاب الشرعي؛ لما يحمله من وجوه المعنى ووجوه المنافع والمصالح الدينية والدنيوية؛ فالخطاب الشرعي من لدن عزيز حكيم ومحكم وحمّال مقاصد نافعة، وأرى أنه من الصواب أن يظلّ جمعا قيد الخطاب الشرعي، وألا يستخدم في قصد الخطاب البشري المحدود، ولا يجوز أن نستخدم ترجمة "البرجماتية اللسانية" التي تقوم على فلسفة تحصيل القصد من كل وجوه الفهم، دون ضوابط تفسير الخطاب الشرعية واللغوية، ولك أن تستخدم مصطلح "القصد" مفرداً في تحليل الخطاب البشري بالمعايير الغربية»⁽³²⁾. وهو تبرير مقبول؛ لأنه يحدّد خصوصية "علم المقاصد"؛ فهو خاص بالخطاب الشرعي، على عكس "المقصد" الذي نهضت عليه الدراسات التداولية، والخاص بالخطاب البشري.

ذكر مسعود صحراوي أنّ معظم التداوليين «يقرّ بأن قضية التداولية هي "إيجاد" القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرّف على القدرات الإنسانية، وتصير "التداولية"، من ثمّ، جديرة بأن تسمى: "علم الاستعمال اللغوي"⁽³³⁾. واقترحه مؤسس على طبيعة هذا الحقل الذي يهتم في أساسه في "الاستعمال اللغوي"؛ لذلك سمّاه "علم الاستعمال اللغوي"، وهو اصطلاح مركّب مكوّن من ثلاث كلمات، غير أنّ منهجية التوليد المصطلحي في العربية توصي باعتماد المصطلح المفرد دون المركب، والمكوّن من كلمتين أحسن من المركب من أكثر من ذلك.

وهنا نشير إلى خصوصية الدرس التداولي الذي يبحث في "الاستعمال اللغوي"؛ أي في تداولية الاستعمال اللغوي، وأساسه هو البحث في مقتضيات الاستعمال ككل، نوضّح ذلك بالتركيز على ما يلي:

تتجاوز وظيفة اللغة في الطرح التداولي حدود الوظيفة التعبيرية التي تقف عندها اللسانيات، لترتفع بالوظيفة الاستعمالية التي تبتغي التأثير والإنجاز.

في نطاق اللغة المفوطة كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة؛ فيقال: "نقل الكلام عن قائله" بمعنى رواه عنه، كما يقال "نقل الشيء عن موضعه"؛ أي حرّكه منه؛ ويقال: "دار على الألسن" بمعنى جرى عليها، كما يقال: "دار على الشيء"، بمعنى طاف حوله؛ ف"النقل" و"الدوران" يدلان بذلك في استخدامهما اللغوي، على معنى النقل بين الناطقين، أو قل معنى "التواصل"؛ ويدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، أو قل على معنى "التفاعل"؛ فيكون التداول جامعاً بين جانبيين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى "التداول" إذن أن يكون القول موصولاً بالفعل»⁽²⁷⁾.

وهنا نشير إلى منهج طه عبد الرحمن في التوليد المصطلحي القائم على اعتماد الآليات اللغوية التي تحافظ على أصالة العربية، يقول: «وسعيّ وراء الاستقلال عن المعايير الأجنبية في الوصف وإنتاج المعرفة، اجتهادنا قدر المستطاع في الأخذ بأسباب اللغة العربية في التعبير والتبليغ»⁽²⁸⁾.

ونعجب للباحث محمود عكاشة كيف لم يقبل اصطلاح "علم الاستعمال اللغوي" على الأقل؛ طالما أنه حصر التداولية في "الاستعمال اللغوي".

ترجم محمد محمد يونس علي "Pragmatics" بـ"علم التخاطب"، وهو اصطلاح مقبول إلى حدّ كبير؛ لأنه مؤسس على ما تقتضيه منهجية الوضع المصطلحي التي تعتمد المصطلح المركب، ومفهوم هذا الحقل قائم على دراسة التخاطب اللغوي. ثم يذكر أنّ ما «يترجمه بعض اللسانيين العرب بالذرائعية حيناً، وبالتداولية أو النفعية حيناً آخر، وهي تراجم غير موفقة؛ لأنّ هذا المصطلح (وهو إغريقي الأصل) يفسّره الغربيون بأنّه علم الاستعمال "The science of use" الذي يتفق تماماً مع مباحث الاستعمال المقابلة لما يعرف بالوضع عند علماء أصول الفقه، والبلاغيين العرب القدماء. وعلى الرغم من أنّ الاستعمال في التراث العربي والإسلامي لم يصبح علماً لغوياً مستقلاً كما حدث للوضع، فإنّ تسمية "Pragmatics" بعلم الاستعمال قد تكون أفضل من غيرها مما ذكر، وإن كنت أفضل ترجمته بعلم التخاطب؛ وهي ترجمة تراعي ما صدق اللفظ لا مفهومه بالمعنى المنطقي للمصطلحين، حيث يقصد بمباحث الاستعمال ما يدخل في إطار المباحث التخاطبية تماماً». ولهذا لما لاحظ محمد يونس علي أنّ أساس هذا العلم (Pragmatics) قائم على دراسة المعنى في التخاطب استحسّن ترجمته بـ"علم التخاطب" أو "التخاطبية"⁽²⁹⁾.

وبين محمد محمد يونس علي أنّ «الغاية من علم التخاطب هي معرفة كيفية حصول التفاهم بين المتخاطبين، وتشمل مسأله كل العناصر التي تسهم إحداث التخاطب من وضع واستعمال وقرائن، وأنواع الدلالات المختلفة، والنظريات الدلالية ذات الصلة بالاستعمال والسياق. أما مبادؤه فهي قضايا اللغة المختلفة التي تبحث في فقه اللغة، والصرف، والنحو، والبلاغة، واللسانيات، وتحليل الخطاب، والنص، وعلم الأصول، وعلم

مصطلح "التداولية" الشائع بين الكثير من المتخصصين هو الأنسب لهذا الحقل من غيره من الاقتراحات، لأنه اصطلاح أصيل له ومؤسس وشامل.

- لا نقبل بالترجمة الحرفية لمصطلح "Pragmatique" بـ"البراغماتية"؛ لأنها لا تحافظ على هوية لغتنا؛ بل إن تكريس هذا الألية من غير استنفاد الآليات الأخرى التي تبقى في حدود ما تمليه العربية، قد يهدد الأمن اللغوي لمجتمعنا.

- اقتراح "علم المقاصد" مقابلاً للتداولية، قد يكون غير شامل؛ لأنه لا يحيط بمجالها؛ إذ لا تبقى في حدود البحث في "المقصد" فقط؛ بل تخوض في الآليات والتقنيات التي تسهم في تحقيقه كإضمار غير محقق مباشرة، ولذلك تقتضي دراسته الوقوف على المعطيات التي تنتجها من جهة، وتسهم في تأويله من جهة أخرى.

- لم يكن مفهوم "التداولية" واضحاً وبريقاً لدى الدارسين منذ نشأة هذا الحقل؛ إذ تنازعت حدود عامته، جعلته يتداخل مع حقول متاخمة كالسيميائية وعلم الدلالة، ولكن مع تنامي الدراسات التداولية ارتبط بالاستعمال اللغوي وكل الآليات التي تسهم في تحقيق الفعالية الإنجازية للقول وإنتاجاً وتلقياً.

المصادر والمراجع

♦ القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن نافع.

-أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، 2002م.

-تجديد المنهج في تجديد التراث، طه عبد الرحمن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط2.

-تحليل الخطاب، ج. براون وج. بول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومينير التريكي، السعودية جامعة الملك سعود، 1997.

-تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجلي في

-التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د.مسعود صحراوي، بيروت دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1/2005م.

-التداولية من أوستين إلى غوفمان، فليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، سورية دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1/2007.

-التسعينية، دراسة وتحقيق د.محمد بن إبراهيم العجلان، الرياض مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط1/1999.

-تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، بيروت دار صادر (د.ط.).

-التحرير على التنوير، الطاهر بن عاشور، تونس الدار التونسية للنشر، 1984.

-الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط7/1998.

-الخطاب النسوي في القرآن الكريم، د.محمود عكاشة، القاهرة دار النشر للجامعات، ط1/2014.

-علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، د.محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ط1/2006.

-في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة -دراسة دلالية ومعجم سياقي، د.محمود حجّي الصراف، القاهرة مكتبة الآداب، ط2/2014.

-في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي، ط3/2007.

-ذكر عبد الملك مرتاض أن مفهوم التداولية ليس متداولاً بين الناس على نحو من الوضوح الأبلج؛ بل ما يزال هذا المفهوم تتنازعه جملة من الفُهوم الغامضة في أغلب أطوارها، تنبثق من تنظيرات غربية لَمَّا تُلَفِّ سبيلها إلى الوضوح⁽³⁴⁾.

وقد انتهى ضمن مفهوم التداولية إلى أن ما كان يطلق عليه عبد القاهر الجرجاني "معنى المعنى" ليس إلا "البراغماتية" La pragmatique، أو "التداولية" التي تعني من بين ما تعنيه في مفهومها السيميائي المعقد المعنى "المسكوت عنه" في الكلام⁽³⁵⁾. وهي جزئية مهمة من مفهوم هذا الحقل الذي يبحث في المعنى الذي يبتغيه المتكلم، ويؤوله المتلقي انطلاقاً من معطيات سياقية، تسهم في إنتاجية القول وتأويله.

وقد تبين له في مناسبة أخرى أن قدرة التداولية على التدخل في إثراء معاني الكلام، والذهاب في تأويل المسكوت عنه، هي من الغنى والسعة ما يُثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللغة البسيطة تحتلها⁽³⁶⁾.

ثم شكك في مصطلح "التداولية" حيث قال: «وقد أُصطنع في العربية النقدية المعاصرة على أنه "تداولية" في حين أنا نشك في أنه كذلك بهذه الصيغة التي ورد عليها في أصل الاستعمال الغربي؛ لأن صيغة هذا الاستعمال "Pragmatique" لا تدل على وجود يا النزعة المعرفية (علمية أو فلسفية أو أدبية)، والتي يُطلق عليها النحاة العرب، بغير إقناع، "الباء الصناعية"، فالأجانب يصطنعون صيغة أخرى لما يقابل هذه الباء (أو اللاحقة الثنائية على الأصح "سيّة") "Pragmatisme, Pragmatism"، فكيف نترجم، نحن العرب، مفهومين اثنين في أصلهما، بصيغة عربية واحدة...؟ ولذلك نقترح أن نطلق على مقابل المفهوم الأول "التداول" (أي تداول اللغة)، (دون لاحقة "سيّة")، وعلى المفهوم الآخر المنصرف إلى النزعة المذهبية: "التداولية"، وذلك حتى نطوِّع العربية من أجل أن تتقبل المفاهيم بالدقّة المطلوبة ما أمكن، فنميز بين المعاني المتقاربة، والدلالات اللطيفة في لغتنا المعاصرة»⁽³⁷⁾.

وهو اقتراح خاص نعتقد أنه قد يوقع المتخصص قبل العام في تداخل كبير؛ لأنه مشتق من المادة المعجمية نفسها، على الرغم من الاختلاف الكبير بين الاصطلاحين.

خاتمة

لا يمكن تجاوز الإشكالية المصطلحية لدى الدارسين العرب من غير الأخذ بالصرامة العلمية التي تقتضيها منهجية الوضع المصطلحي، وأشكال التقييس، وبالتالي تحقيق ثقافة مصطلحية مؤسّسة، تدعو المتخصصين والباحثين إلى وضع المصطلح العلمي في مختلف الحقول المعرفية بما يحافظ على هوية اللغة العربية، ويكرس الثقافة الإبداعية، وقد نبدي أهمية هذه الفكرة أكثر بإيراد النتائج التالية:

-ندرك بالارتكاز على منهجية التوليد المصطلحي التي تقتضي وجود علاقة بين الدلالة اللغوية والمفهوم الاصطلاحي أن

- القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الباحثين بإشراف عز الدين المدوب.
- مبادئ في اللسانيات، دخولة طالب الإبراهيمي، الجزائر دار القصبة للنشر، 2000.
- مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتسيسلاف واورزنيك، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1/2003.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينيكو، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، 1986.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر وزارة التربية والتعليم، 1994م.
- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد، ط1/2004.
- الموسوعة اللغوية، تحرير كولنج، ترجمة د.محي الدين ود.عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، 1421هـ.
- نحو نظرية لسانية مسرحية، مسرح سعد الله ونوس نموذجاً، د.محمد صلاح إسماعيل بصل، بيروت دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
- نظرية البلاغة، د.عبد الملك مرتاض، وهران دار القدس العربي، ط2/2010.
- نظرية النص الأدبي، د.عبد الملك مرتاض، الجزائر دار هومة، 2007.
- النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، د.محمود عكاشة، القاهرة مكتبة الآداب، ط1/2013.
- لسان العرب، ابن منظور، بيروت دار صادر (د.ت).

المصادر والمراجع الأجنبية

- Dictionnaire encyclopédique de la pragmatique. Jacques moeschler et anne reboul. Edition de seul. 1994.